المعرف الرقمي DOI
https://doi.org/10.59151/.v7i1.255

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 5-10-2022
تاريخ القبول: 13-2-2023

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في علوم الوحي والدراسات الإنسانية

لاس كاساس والتسامح[1]

نستور كابديفيلا

ترجمة: عبد القادر ملوك[2]
abdel.ar.0609@gmail.com

ملخص:

يطلعنا الكاتب في مقاله هذا على تجربة التسامح كما عاشها الراهب الإسباني بارتولومي دي لاس كاساس في عهدٍ كان طافحًا بالتعصب في أبشع صوره. وهو رجل اختار الانتصار للإنسان ولكرامة الإنسان أياً كانت ثقافته أو ديانته أو عرقه أو غيرها من المحددات، على حساب نظرة استعمارية توسعية ضيقة تتخذ من الدين مطية لتحقيق مآرب سياسية زهقت فيها أرواح بالآلاف. وما همَّه أن يكون هذا المستعمر الراغب في التوسع هو الدولة التي ينتمي إليها ويحتمي بظلها ويعتاش من خيراتها، لإيمانه بأن الحق أحقُّ أن يقال ويُتَّبع. ولعل هذا الموقف الجسور هو ما منحه لقب رسول الهنود نظيرَ المساعي التي بذلها لرفع العسف الذي حاق بهم جرَّاء الغزو الإسباني.

الكلمات المفتاحية:

كابديفيلا، لاس كاساس، الغزو الإسباني، التسامح، التعصب

(1) العنوان الأصلي للمقال هو:
Nestor Capdevila, « Las Casas et la tolérance », in : L'invention de la tolérance. Averroès, Maïmonide, Las Casas, Lincoln, Voltaire, Actes du colloque organisé par la Fondation Ostad Elahi éthique et solidarité humaine au Palais du Luxembourg 2007. Paris : L'Harmattan, 2008.

(2) أستاذ التعليم العالي بجامعة ابن زهر/أغادير. (المغرب).

للاقتباس: ملوك، عبد القادر، لاس كاساس والتسامح، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج7، ع1، 2023، 156-171.

© نشر هذا البحث بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) المفتوح، الذي يسمح لأي شخص تنزيل البحث وقراءته والتصرف به مجانًا، مع ضرورة نسبته إلى صاحبه بطريقة مناسبة، مع بيان إذا ما قد أُجرى عليه أي تعديلات، ولا يمكن استخدام هذا البحث لأغراض تجارية.

OPEN ACCESS
Received: 5-10-2022
Accepted: 13-2-2023

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في
علوم الوحي والدراسات الإنسانية

Las Casas and tolerance [3]

Nestor Capdevila

Translated by: Abdelkader Mellouk[4]

abdel.ar.0609@gmail.com

Abstract:

In this article, the author reveals the experience of tolerance as the Spanish bishop Bartolomé de Las Casas lived it at a time full of intolerance in its worst forms. He is a man who chose to defend the human being and human dignity, no matter what his culture, religion, race or other determinants was, detrimental to a colonial expansionist narrow vision that uses the religion as a tool to achieve political goals that claimed the life of thousands of civilians. It doesn't matter to him if the country that he belongs to and that afford for him protection and safety present this colonialist eager that wants to expand, because of his belief in that the truth was more worth to tell and to follow. This bold stance was maybe the raison for him to earne the title of the Messenger of the Indians, according to his efforts to lift the abuses inflicted upon them following the Spanish invasion.

Keywords:

Capdevila, Las Casas, Spanish colonization, tolerance, intolerance, American Indians.

(3) The original title of the article:
Nestor Capdevila, « Las Casas et la tolérance », in : L'invention de la tolérance. Averroès, Maïmonide, Las Casas, Lincoln, Voltaire, Actes du colloque organisé par la Fondation Ostad Elahi éthique et solidarité humaine au Palais du Luxembourg 2007. Paris : L'Harmattan. 2008.

(4) Professor of higher education at Ibn Zohr University / Agadir. (Morocco).

Cite this article as: Mellouk, Abdelkader, Las Casas and tolerance, Journal of Namaa, Nama Center, Egypt, V7, issue1, 2023, 156-171.

© This research is published under an open license (CC BY-NC 4.0), which allows anyone to download, read and use the research for free, provided it is properly acknowledged, indicating if any modification has been made to it. This research shall not be used for commercial purposes

توطئة:

هذه الترجمة هي في أصلها مداخلة ألقاها نيستور كابديفيلا خلال ندوة تمحورت حول موضوع التسامح، سلَّط المشاركون في فعالياتها الضوء على جوانب عدة من هذا المفهوم، ووقفوا عند بعض معانيه التي دلَّ تبايُنها وتشعُّبها على أنه مفهوم لا يقال بمعنى واحد في الأزمنة والثقافات والمذاهب المختلفة، كما رصدوا نماذج دالة لفاعلين تاريخيين أعملوا فكرهم فيه وفي شروط أجرأته وإنزاله إلى دنيا الناس، أمثال ابن رشد وابن ميمون ولاس كاساس وفولتير ولينكولن، سواء كتابةً، في صورة مؤلفات ضمَّنوها ما تراكم لديهم من خبرات ومعارف عسى أن تتمثلها الأجيال اللاحقة فتقتدي بها أو تتعكَّز عليها في تطوير منظور أرحب وأعمق؛ أو ممارسةً، من خلال اطِّلاعنا على تجارب واقعية كانوا فيها أطرافا فاعلة في صراع دارت رحاه بين التسامح ومقابله اللاتسامح؛ وأحيانا كان الصراع يتم داخل مفهوم التسامح ذاته، لانتفاء الإجماع حول معيار واحد لتصوره وتقديره وتفعيله. وقد كان القاسم المشترك بين أغلب المدافعين عن التسامح، سواء كان منطلقُ دفاعهم أخلاقيا أو سياسيا، هو ضرورة التوجه إلى الإنسان باعتباره قيمة وجودية لا تقبل التداول في أي سوق من الأسواق الرائجة، لذلك ما انفكوا يدعون إلى إرساء عالم بلا نماذج، عالم مفتوح يتطلب من كل «هوية»، أيا كان المحدد الذي تركن إليه، ألا تنكفئ على ذاتها، بل أن تكون مفتوحة على الخارج، مستعدة للدخول في حوار حقيقي مع الآخر، تقبل بالاختلاف دون أن تجعل منه خلافا يَؤول إلى نقيض مقصده، أي إلى التناقض المطلق؛ وإنما أن ترى فيه ضربا من المباينة التي تبتغي تقويض الصورة المطمئنة للهوية المتطابقة مع نفسها، وإرساء هوية مرنة، هي عبارة عن حركة دائمة من الاحتفاظ والتجاوز في صيرورة مولدة للفوارق والاختلافات. إن هذه النماذج «المتنورة» المنافحة عن قيمة التسامح، وإن كانت تقبل بركون الشعوب إلى محددات تمييزية تُتخذ علامات دالة على «نحن» يراد لها أن تكون حصنا وإطارا حاضنا يرضي نرجسية الأمم والشعوب في الشعور بالفرادة والتميز، إلا أنهم يرفضون أن تتحول هذه المحددات إلى حدود مانعة وفواصل قاطعة تقيم تمييزا صريحًا بين الداخل والخارج، يعلي من شأن «النحن» ويتعصب لها بشدة، ويحط في المقابل من قدر الآخر المختلف ويعامله بجفاء ولامبالاة في أحسن الأحوال، أو يُقدم، في أسوئها، على إبادته وتصفيته نهائيا كما تشهد على ذلك عديد الحالات عبر التاريخ، يهمنا منها في هذا المقام تعامل الغازي الإسباني مع الهنود الأمريكيين خلال القرن السادس عشر، بالصورة التي ستعرضها الترجمة التي بين أيدينا.

لقد اختار كابديفيلا أن يرصد في مداخلته هذه تجربةَ التسامح كما عاشها الراهب الإسباني بارتولومي دي لاس كاساس في عهدٍ كان طافحا باللاتسامح في أبشع صوره. وهو رجل اختار الانتصار للإنسان ولكرامة الإنسان أياً كانت ثقافته أو ديانته أو عرقه أو غيرها من المحددات، على حساب نظرة استعمارية توسعية ضيقة تتخذ من الدين مطية لتحقيق مآرب سياسية قد تقضي فيها أرواح بالملايين. وما همَّه أن يكون هذا المستعمر الراغب في التوسع هو الدولة التي ينتمي إليها ويحتمي بظلها ويعتاش من خيراتها، لإيمانه بأن الحق أحقُّ أن يقال ويُتَّبع. ولعل هذا الموقف الجسور هو ما منحه لقب رسول الهنود نظيرَ المساعي التي بذلها لرفع العسف الذي حاق بهم جرَّاء الغزو الإسباني.

نافح لاس كاساس، كما سيتبين لاحقًا، عن منظور مختلف للتسامح، منظور وإن اختلف عن الدلالة النوعية الجديدة التي اكتسبها هذا المفهوم في الأدبيات المعاصرة، إلا أنه يقتضي منا أن نتوقف عنده قليلا، بالنظر إلى قيمته كموقف يستحق، من جهة، الإشادة والتنويه لكونه ينافح عن حق الهنود الأمريكيين في التصرف في حياتهم بالصورة التي يرتضونها دون أن يمتلك أي طرف، مهما أوتي من قوة ومن وجاهة رأي[(5)]، الحق في إخضاعهم بقوة الإكراه، لأنهم غرباء تماما عن المسيحية؛ لم يُلحقوا بها أي ضرر، وليس لديهم أدنى معرفة عنها تحملهم على معارضتها عن عمد؛ وهو، من جهة أخرى، موقف يثير الدهشة والاستغراب إذا ما نظرنا له خارج المجال التداولي الذي تشكل فيه، من حيث أنه لا يرى أدنى موجب للتسامح مع «الكفار» الذين يقصد بهم المهرطقين والمسلمين واليهود، لأنهم، في نظره، أعداء الكنيسة الحقيقيون، بحكم أنهم يرفضون تعاليمها عن عمد ويمتنعون عن الخضوع لقوانين أمرائها المسيحيين أو يعمدون إلى محاربتها.

وقبل أن نعرض لمضمون موقفه بتفصيل، لا بأس عن نعبر عنه في صيغة جامعة بالقول، إن التسامح بالمعنى الذي كان متداوَلا في هذه الحقبة الزمنية من تاريخ البشرية، ومازالت بعض الألسن تردده حتى يوم الناس هذا، يتمثل في الدفاع عما نمقُته أو نحاربه. وهنا تحديدا تكمن مفارقة التسامح؛ حيث إنه يفترض أن ثمة شرا قائما نأنف منه ونرغب في استئصاله، لكننا لا نفعل، وبدل أن نستأصله نتسامح معه[(6)]؛ وهذا ما يجعل التسامح فعلا سلبيا، يعكس مجهودا كبيرا من قِبل الذات لتقبُّل الآخر

(5) رغم دفاعه عن حق الهنود في حرية المعتقد إلا أن لاس كاساس كان مقتنعا بأن العقيدة المسيحية هي العقيدة الحقة.

(6) هذه الدلالة هي التي كانت رائجة في اللغة اللاتينية القديمة، ويحيل إليها الجذر اللاتيني «Tolerare»، الذي يدل على الصبر والقدرة على تحمُّل ما هو مختلف ومغاير، لكن توارد الأزمنة وتطور البحث في المفهوم سيضفي عليه معان إضافية مستحدثة يمكن أن نمثل لها في الخطابات المعاصرة بالتفهم، والاحترام المتبادل، والمساواة والتكافؤ في الحقوق. وقد صارت كلمة تسامح مؤخرًا بمثابة محرك ودافع قوي إلى الاعتراف بالتعددية وبالحقوق الثقافية كما دافع عن ذلك بحماس مجموعة من الفلاسفة المعاصرين في مقدمتهم يورغن هابرماس.
=

والتفكير بالطريقة التي يفكر بها ضمانا لتعايش آمن. إن التسامح هنا يبدو أقرب إلى معنى الصفح أو العفو أو غض الطرف، وهي معان لا يرتاح إليها لاس كاساس ولا يوافق على رهاناتها ونتائجها، لأنه لا يرى ما يبرر من الناحية العقلية اعتبار التسامح جودا أو منَّة أو تنازلا يقوم به طرف قوي لصالح طرف ضعيف، ولذلك نراه ينافح عنه باعتباره حقا ملزِما بموجب القانون الطبيعي، المُعبر الحقيقي عن إرادة الله، الذي يقر للشعوب بمبدأ التكافؤ بينها من حيث القيمة المعنوية، ويدعو إلى وجوب احترام ثقافة الآخر وعقيدته. وهو ما لم يأبه به الغازي الإسباني ولا التفتَ للدعوات التي ما فتئت تنبه إليه، مفضلا الاستناد إلى الحق الإلهي، كما تأوَّله رجال الدين حينها، في إخضاع الهنود قسرا لسلطته سياسيا وعقديا. صحيح أن لاس كاساس يستحضر البعد الديني الأخلاقي في دعوته إلى التسامح، أولا بحكم أنه كان راهبا دومينيكانيا، وثانيا لأن العناصر الأولى لهذا المفهوم تبلورت في الحقل الديني المسيحي في البداية، لكن ما يحسب له حقا أنه لم يبقَ حبيس المنظور الديني الأخلاقي المذكور، بل تعداه نحو الدعوة إلى تكريس التسامح مطلبا سياسيا حقوقيا ينبغي تنزيله واقعيا في لائحة من الحقوق التي من شأنها أن تضمن للآخر خصوصيته، منها في نفس الوقت، انسجاما مع الظرفية التاريخية التي كان يعيش فيها، إلى أن كل محاولة من الفئة القوية لاحتواء خصوصية الفئة الضعيفة واستيعابها ضمن «خصوصيتها»، أو محوها نهائيا، ينبغي أن يتم بالحلول السلمية القائمة على الحجاج والإقناع وليس باللجوء إلى الإكراه والقمع الذي انتهى إلى حروب إبادة سيظل التاريخ شاهدا عليها ما بقيت البشرية. ولعل هذه الفكرة لا تختلف، في شقها الثاني، عما ذهب إليه ابن رشد الذي رفع التسامح إلى أعلى مقام، مقام العدل، في قول نورده مع بعض التحوير: «من العدل أن تأتي كل ثقافة من الحجج لخصومها بمثل ما تأتي به لنفسها؛ أعني أن تجتهد في طلب الحجج لخصومها كما تجتهد في طلب الحجج لنفسها، وأن تقبل لهم من الحجج النوع الذي تقبله لنفسها»[7]. بهذا النوع من التفكير يمكن إرساء قاعدة حوار عقلاني سليم وإيجابي بين الثقافات، يختلف عن الدعوة والتبشير، من حيث أنه لا ينظر للتسامح باعتباره منة وتكرما، بل يجعله مرادفا للانسجام الذي يتحقق داخل الاختلاف.

= انظر: عبد الرزاق الدواي، في الثقافة والخطاب عن حرب الثقافات. حوار الهويات الوطنية في زمن العولمة (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى 2013)، ص102-101.

(7) أبو الوليد ابن رشد، تهافت التهافت، تحقيق سليمان دنيا (القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثالثة، 1980)، ص369.

النص:

مبدئيا لا يبدو من الحكمة في شيء أن نعود إلى فترة إسبانيا القرن السادس عشر لننظر في مسألة التسامح. أليست هذه الفترة موصومة بكراهية الكفر؟ في عام 1479، عمد الملوك الكاثوليك إلى إدخال محاكم التفتيش إلى قشتالة، وشكلت 1492 سنة مجيدة بالنسبة للعقيدة: ففيها طُرد اليهود، وتم التغلب على المسلمين في غرناطة، وتوفق كريستوف كولومبوس في اكتشاف أراضي جديدة آهلة بالوثنيين. وبذلك خضع الكفار باختلاف أصنافهم لقانون إسبانيا الكاثوليكية. على أنه في هذا السياق الإيديولوجي ذاته ستتطور منذ عام 1511 سجالات عنيفة حول طريقة معاملة الهنود، وهي سجالات رأى فيها البعض الإرهاصات الأولى لتبلور حقوق الإنسان والقانون الدولي. صحيح أنه لا أحد من المجادلين المساندين للهنود دافع عن التسامح كقيمة في ذاته مثلما فعل، فيما بعد، لوك (Locke) أو فولتير (Voltaire)، لكن الموقف الذي أبان عنه أشد هؤلاء تعصبا، أقصد أسقف تشياباس (في المكسيك)، بارتوليمي دي لاس كاساس، بدا لنا تجليا فعليا للتسامح. فكيف أمكن لهذا الموقف الذي نعتبره فعلا تسامحيا أن يحدث في هذا السياق من اللاتسامح المفرط؟ وما الذي يُعَلمنا إياه هذا الاقتران الذي يبدو متناقضا - الدفاع عن التسامح في بيئة طافحة باللاتسامح - حول فكرة التسامح ذاتها؟

من المشروع بادئ ذي بدء أن نقر للاس كاساس بدور رئيس في تاريخ التسامح. فمنذ عام 1514، وهو التاريخ الذي حرر فيه الهنود الذين كانوا تحت يديه من نظام الإنكوميينديا (encomienda) الذي كان سيوقعهم في العبودية المالية، إلى حين وفاته عام 1566، دافع بانتظام عن حقوق الهنود لدى السلطة المَلَكية الإسبانية. ولم يكتفِ بإدانة الخروقات والتجاوزات التي وقعت في حق الهنود، بل شجب مبدأ الغزو ذاته القائم على الاستغلال المفرط الذي كان سينتهي بتدمير الهنود عن آخرهم. لقد دافع لاس كاساس عن حق هذه الشعوب المستغَلة في التصدي للطموح الاستعماري الإسباني الجارف، وعن حقها في الدفاع بالأسلحة عن أرضها، وسيادتها، بل وعن عقيدتها أيضا، لأنها شعوب تتمتع بنفس الحقوق والواجبات الطبيعية التي للإسبان. وهؤلاء وأولائك يخضعون جميعا كبشر للقانون الطبيعي الذي يعبر بصورة ملزِمة لكل الناس عن إرادة الله، لأن هذا القانون لا يتطلب، بخلاف الوحي، أي معرفة متعالية عن إمكانات العقل البشري. وبهذا يحق للإسبان والهنود معا، وفق ما يخوله لهم الحق الطبيعي، أن يتصرفوا في حياتهم بالكيفية التي تروقهم على أراضيهم. وقد أبان لاس كاساس، بهذا المنظور، وبما لا يقبل الشك، عن تحلِّيه بحس التسامح في معناه العام الذي يفيد «أن نعترف للآخر بطريقته في التفكير أو الفعل المختلفة عن تلك التي نتبناها نحن»[8].

(8) هذا هو المعنى الثاني للتسامح الذي يكشف عنه معجم روبير الصغير (Petit Robert).

لكن هذا الحُكم، الذي سيمسي مشروعا فيما بعد، يمنعنا من أن نفهم جيدا منطق موقف لاس كاساس، لأن لفظَ «تسامح» وُظِّفَ هنا وفقَ معنى لم يكن يعرفه حينئذ، ولا كان في مُكنته أن يعرفه. فهو يفترض قبولًا للاختلاف، غير أن لاس كاساس كان كاثوليكيًا أرثوذكسيًا وبالتالي كان مؤمنًا بأن المسيحية هي العقيدة الصحيحة وأن الكاثوليكية هي التعبير الأوحد عن الحقيقة. واستنادًا إلى ذلك، فإن العلاقة بالكفار هي بالتالي غير متكافئة وصراعية. وهم مطالبون باعتناق الكاثوليكية ليتسنى لهم إدراك أو إعادة إدراك طريق الحقيقة والخلاص. هكذا، يبدو أن اللاتسامح كان جزءا لا يتجزأ من الكاثوليكية الإسبانية خلال القرن السادس عشر؛ لأنها كانت تدَّعي امتلاك الحقيقة الدينية والقدرة على إلزام الآخرين بها.

ولعل الأطروحة التي تجسد بصورة أفضل هذا اللاتسامح البنيوي هي كون البابا كان يعد نفسه نائبًا للمسيح. بما يفيد أن هذا الأخير قد ورَّث بطرس الرسول وخلفاءه كل القوة التي كان يحوزها إنسان، بما يُمَكِّن للبابا أن يفعل كل ما كان يمكن أن يفعله المسيح، أي الرب. والكاثوليك لا يتفقون تحديدًا حول طبيعة هذه القوة الإلهية المصدر؛ فبعضهم، ممن يسمون ثيوقراطيين، يزعمون أن المسيح كان يمتلك ليس فقط السلطة الروحية، أي سلطة العناية بالجانب الروحي لسائر الخلق، بل السلطة الزمنية (الدنيوية) أيضا، أي السلطة السياسية. وقد كانت هذه الأطروحة هي أساس فقاعة 1493 التي بموجبها منح إسكندر السادس (البابا الرابع عشر بعد المئتين للكنيسة الكاثوليكية) السيادة لقشتالة على الأراضي التي اكتشفها كريستوف كولومبوس كما تلك التي سيتم اكتشافها فيما بعد، بغاية كثلكة سكانها. وبهذا، حُرم الهنود، بين عشية وضحاها، من أي حق في السيادة، لا لشيء سوى لأن وَثَنيتهم تمنعهم من أن يكونوا سادة بالفعل.

ينظر لاس كاساس للتأويل الثيوقراطي لسلطة البابا باعتباره هرطقة، معتبرًا في المقابل، على رأي توما الأكويني وفرانثيسكو دي فيتوريا، أن المسيح نقل إلى البابا السلطة الروحية فقط، وهي سلطة تمنحه الحق في أن يبذل الوسع في تحويل الكفار إلى المسيحية وتثبيت المؤمنين على إيمانهم، لكنها لا تُخول له التدخل بصورة مباشرة في النظام الدنيوي بحرمان الهنود من حقوقهم الطبيعية، وإلا عُد فعله هذا انتهاكا سافرا لشريعة الرب. ولما كان الحق الإلهي للبابا المستند إلى الوحي يؤكد بالضرورة الحق الطبيعي بالنظر إلى أن الرب لا يمكنه أن يناقض نفسه، فإن غزو أمريكا القائم على إلغاء سيادة الهنود على أرضهم هو إذن غير مشروع كلية. كما أن قرار الإمبراطورية بدوره يعد باطلًا قانونيًا، وللهنود بموجب ذلك كامل الحق في خوض حرب عادلة ضد كل المسيحيين. واقعيًا، لم يفعل البابا أكثر من

إلزام الملوك الكاثوليك بفعل كل ما ينبغي فعله لتحويل الهنود إلى المسيحية، وقد عطف عليهم بلقب الحكام أصحاب السيادة الإمبريالية على الهنود، دلالة على تشريفهم بهذه المهمة ومكافأة لهم على إنجازها.

إن هذا التصور الذي يقضي بالتفوق الخارق للمسيحيين على غيرهم، يتعارض مع نظام الحكم الديني فيما يتعلق بالاعتراف بنوع من المساواة الطبيعية والسياسية بين المسيحي والوثني. فهو يوفر الشروط لقبول الاختلاف بالنظر إلى أن الحق الطبيعي يمكن تطبيقه بطريقة تختلف نسبيا تبعا للظروف؛ لكنه يُبقي على اللامساواة الصراعية بين المسيحيين والكفار. بحيث إن المسيحيين «الحقيقيين» وحدهم المخولون فعلًا بإدراك إرادة الرب؛ لأنهم يستطيعون النفاذ إلى الحقائق المتعالية على العقل، والتي أوحى بها الرب إلى الناس عبر وساطة المسيح، ملزمةً إياهم بواجب إدخال كل الكفار إلى المسيحية. بذلك أصبح التسامح القائم على كونية الحق الطبيعي تابعا لهذا اللاتسامح مع الكفر القائم على الحق الإلهي. هكذا، كان لاس كاساس في بحثٍ دائمٍ عن تحويل الكفار إلى المسيحية وإخضاعهم للسلطة الإمبريالية لشارلكان (Charles Quint). وقد كانت طريقته تقضي بأن يقوم الوعاظ في مرحلة أولى بالدعوة إلى الإيمان بطريقة سلمية للغاية لأن الهداية ينبغي أن تكون بشكل حر. حتى إذا تأتى لهم ذلك، مرُّوا بعدها إلى محالة إقناع الهنود الذين صاروا مسيحيين بالخضوع طوعا لإرادة الإمبراطور. ولعل في رفض لاس كاساس الإكراه في الدين اعترافًا صريحًا بحرية الآخر في رفض الاهتداء والخضوع، واقتناعًا بأن الإيمان إذا دُعي إليه بصورة صحيحة سيعجز الهنود عن رفضه، بل سيدفعهم قبول هذه الهدية إلى إعلان خضوعهم للإمبراطور عن طيب خاطر.

وقد تمثَّل أحد مظاهر الصراع بين لاس كاساس وسيبولفيدا خلال مناقشة بلد الوليد[9] في اختلاف الرؤى حول أفضل طريقة ممكنة لإخراج الهنود من وثنيتهم. وبينما رأى سيبولفيدا أنه ينبغي أولًا إخضاعهم بالحرب ليتسنى لرجال الدين بعدها تحويلهم إلى الكاثوليكية بسهولةٍ ويسرٍ، مؤكدًا على أن هذه الحرب وإن كانت ستخلف ضحايا وراءها، فإن ما ينجم عنها من شرور أهون بكثير مما سيترتب عنها من خيرات، بل حتى لو أمكن القضاء على الوثنية دون أضرارٍ بالغة، فإن التسامح معها مدان في كل الأحوال. بينما كان هذا رأي سيبولفيدا، أبدى لاس كاساس رفضًا قاطعًا لهذه الطريقة في النظر، بل عدَّها عبثية وبلا جدوى وتتناقض تمامًا مع مبدأ محبة القريب، وتتماهى في المقابل مع تجربة الغزو التي كشفت عن بشاعة الإبادة التي تعرض لها الهنود. إن الحرب التي يمجدها سيبولفيدا هي شر غير

(9) B. De Las Casas, La controverse entre Las Casas et Sepulveda, Paris, Vrin, 2007.

مقبول، لا يستطيع أيُّ خير أن يعوضه. وإذا لم يكن من الممكن القضاء على الوثنية بالطريقة التي يقترحها سيبولفيدا، فمن الواجب علينا أن نبدي تسامحنا معها. والعنف إنما يتبدى بصورة واضحة في ألاَّ يتحول الهنود الناجون بحرية وبصدق إلى الكاثوليكية، وأن لا يفعلوا ذلك ربما أبدا. فالوعاظ من واجبهم أن يدعوا إلى المسيحية لكن محاولاتهم ستبوء بالفشل دائما إذا انتفت الرغبة عن المدعو وافتقد للحرية في الاختيار. والمسيحي «الحقيقي» يجب أن يرفض توسع الإيمان ومعه الإمبراطورية المسيحية إذا كانت تكلفة هذا التوسع هي تدمير الهنود ولو جزئيًا[10].

ههنا لا يمثل التسامح نهائيًا استعدادًا أخلاقيًا طيبًا لقبول الاختلاف البشري وحرية الشعوب، على تباين دياناتها وحضاراتها، في استخدام الحقوق المشتركة بينها، بل يبدو بمثابة اعتراف بفشل التبشير والسياسة الإمبريالية أو، بشكل عام، بلا جدوى التفوق الأخلاقي والمادي الذي يتمتع به المسيحيون. فهو يعبر عن ضعف القوي وقوة الضعيف. هذه هي الصيغة التي يُستخدم بها لفظ التسامح في السياق الكاثوليكي؛ «نتسامح مع أولئك الذين نعجز عن القضاء عليهم، مثلما ورد ذكره في المقال المخصص للتسامح المُتضمَّن في قاموس قضاة محاكم التفتيش المنشور بشكل مجهول في فالنسيا عام 1494. الأشرار ينبغي مسامحتهم بسبب الطيبين، ولهذا كان الرسول يتسامح مع الأشرار، مع أن ذلك كان يشق عليه. هناك خطايا نتسامح معها، وأخرى نعاقب عليها. وهناك أمور يتم التسامح معها داخل الكنيسة لأسباب معينة، وكان يمكن المعاقبة عليها بشدة لو غابت هذه الأسباب. وبناء على ذلك، عليكم بالحيطة والحيلة!»[11].

يصعب علينا، تلقائيًا، أن نأخذ على محمل الجد مثل هذه التصريحات المستمدة من كتاب وضيع وسخيف في آن معا. لكنه أرثوذكسي تماما بل ومقبول للغاية على المستوى النظري كما يوضح ذلك مقال مستقى من الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الأكويني (II-II, q. 10, a. 11) وعليه يحيل لاس

(10) «لكي يكونوا مسيحيين حقيقيين، عليهم أن يدركوا بأنه حتى في حالة فقدان جلالتكم كليًا تلك السيادة الملكية على الهنود وامتناع هؤلاء نهائيا عن أن يكونوا مسيحيين، فإن الضرر الذي ينجم عن تعطل سيادة جلالتكم على هؤلاء الهنود وعن عدم تحولهم نهائيا إلى المسيحية، لا يمكن مقارنته بحجم الضرر الذي ينجم عن الوضع المعاكس إذا كان هذا الوضع لا يمكن تحصيله دون قتلهم وتدميرهم التام، كما هي الحال حتى اللحظة. وآية ذلك [...] أن شريعة المسيحيين تحرم ارتكاب الشرور لضمان تحصيل الخيرات؛ ولا أحد منحه الرب الحق في أن يتقدم نحوه بأي تضحية، مهما عظم شأنها ومهما ضؤل حجم الخطيئة التي تختلط بها؛ لأن الرب لا يبارك مثل هذه التضحية، بل يرفضها ويشجبها. فالرغبة في قتل الكفار بذريعة إنقاذهم، أو في قتل البعض لإنقاذ غيرهم، هي من الشرور الكبيرة والخطايا التي لا تغتفر بل تستحق اللعنة الأبدية. فالرب لا يريد مكسبًا يتحقق بمثل هذا الخسارة».
(Cité par N. Capdevila, « Impérialisme, empire et destruction », i, B. de Las Casas, La controverse entre Las Casas et Sepulveda, op.cit., p. 197).

(11) L. Sala-Molins, Le dictionnaire des inquisiteurs, Valence, 1494, Paris, Galilée, 1981, p. 431.

كاساس وسيبولفيدا: «هل ينبغي أن نتسامح مع شعائر الكفار؟» على الحكام أن يقتدوا في ذلك بنموذج الحُكم الإلهي؛ فالرب يسمح بحدوث الشرور في الكون مع أنه قادر على منع حدوثها «لأن إبطالها يُبطل خيرات كبرى، ويؤدي إلى حدوثِ شرورٍ أعظم». وتبعًا لذلك، يمكن التسامح مع اليهود؛ لأن في ذلك خيرا: إذ لما كانت شعائرهم تقدم نفسها في صورة الإيمان الصحيح، فهي تشهد رغم كل شيء لصالح المسيحيين. أما الكفار الآخرون، الغرباء تماما عن الحقيقة، فيمكن التسامح معهم تجنبا للشر الذي «يمكن أن يتولد عن لاتسامحهم»، مثل الصراعات الناشبة مع الكفار المتسامَح معهم أو إصرارهم المتصاعد على عدم تغيير عقيدتهم. بناء على ذلك، عندما يكون من الممكن القضاء على الكفر دون أضرار، وعندما يكون في القضاء عليه إظهارٌ للحقيقة أو تقليل واضح من الشرور الناتجة عن ذلك مقارنة بالشرور التي قُضِيَ عليها، هنا يكون اللاتسامح أفضل من التسامح. بهذا المعنى يغدو التسامح مقدارًا من الحيطة والحيلة، أو عملية حِسابية موجهة لخدمة الإيمان عندما لا يكون القوي قويًا بالمقدار الذي يُمَكِّنه من أن يفرض نفسه تمامًا، ولا يكون الضعيف قويًا بما يكفي للصمود أمام إرادة هذا القوي.

قد نميل إلى اعتبار أن الأمر يتعلق بتصور للتسامح حرَّفه التعصب. ولعل الحد النظري لإبطال هذا الاستعمال لمصطلح «تسامح» يتمثل في افتراض بداهة المعنى الذي نمنحه له اليوم. ومن المهم من الناحية النظرية أن نتعامل بجدية مع هذا «الانتهاك» ليتسنى لنا أن نحلل بصورة أفضل مفهوم التسامح. والملاحظ تبعا لذلك أن هذا الاستعمال له صدى في سياقات ليبرالية للغاية. وهاكم كيف عالج ثوار فرنسيون مسألة التسامح. ولنبدأ بنيكولا كوندورسيه:

«في البلدان التي كان يستحيل فيها على ديانة أن تقمع كل الديانات الأخرى، كان يتقرر ما كانت الديانة المهيمنة تجرؤ بكل صفاقة على تسميته تسامحا، يتعلق الأمر بترخيص يمنحه أشخاص لأشخاص آخرين يخول لهم الإيمان بما يرتضيه عقلهم، وفعل ما يمليه عليهم ضميرهم [...] وبهذا ستشهد أوروبا ولادة ضرب من حرية التفكير، لا يشمل الناس جميعًا، بل يخص المسيحيين وحدهم»[12].

أما النموذج الثاني فهو القس رابو سانت إتيان الذي تحدث، بتاريخ 28 أغسطس 1789، باسم البروتستانت، أو باسم غير الكاثوليك إجمالًا، قائلًا:

(12) Condorcet, Esquisse d'un tableau historique des progrès de l'esprit humain, Paris, GF, 1988, p. 198-199.

«ليس التسامح هو ما أطالب به؛ وإنما الحرية. بل أطلب منكم تحريم استعمال لفظ التسامح بدوره بعد أن تم تحريم استخدام لفظ اللاتسامح، وهذا سيحدث لا محالة، لأن هذا اللفظ غير العادل يجعلنا، نحن البروتستانت، نبدو مواطنينَ يستحقون الشفقة، مثل مجرمين تمت مسامحتهم رأفة بحالهم، والحال أن الصُّدفة غالبًا إلى جانب التربية هما ما جعلا هؤلاء يفكرون بصورة مختلفة عنا. إن الخطأ، أيها السادة، ليس جُرمًا؛ والذي يجهر به إنما يعتقده صوابًا؛ بمعنى أن الخطأ هو بالنسبة له حقيقة؛ ولذلك فهو ملزم بالجهر به، ولا يملك أي طرف، فردًا كان أو جماعة، الحق في منعه من ذلك. [...] ما أطلبه إذن، أيها السادة، بالنسبة للبروتستانت الفرنسيين، ولغير الكاثوليك جميعًا داخل المملكة، هو نفسه ما تطلبونه لأنفسكم: الحرية، والمساواة في الحقوق»[13].

إن هذا الرفض الثوري لمصطلح «تسامح»، يطلعنا على التوظيف المحاكماتي التعسفي (نسبة إلى محاكم التفتيش) وليس الليبرالي لمصطلح «تسامح». فهو لا يعتبر غير مشروع بناء على أن أهمية المصطلح ترتفع حين يكون موضوع التسامح ليس اختلافًا بشريًا أيًّا كان، بل اختلافًا يثير استنكار قوة أكبر. فعندما لا تكون السلوكات مرفوضة، فإنه لا جدوى من القول بأنه قد تم التسامح معها؛ لأنها بكل بساطة سلوكات حرة[14]. ونزوع القوي نحو الكراهية يمكن معاينته بشكل مباشر في عبارة «يكون موضوع تسامح»[15]. وهو التعبير الذي لا يستقيم على الحرية، إذ لا يمكننا القول بأننا موضوع للحرية، حتى عندما نكون أحرارا. فنحن ببساطة أحرار وكفى. بيد أن الحرية التي رغب في اجتراحها رابو سانت إتيان، وميرابو، وكوندورسيه، هي حرية ناتجة عن التسامح، ولذلك ينبغي تمييزها عن الحرية في معناه القوي لأنها لم تصر حقاً بعدُ. فالتحرر هو الانعكاس المتكافئ لعلاقة الهيمنة التي تؤسس التسامح واللاتسامح معا، في حين أن الحرية هي لذة تكفلها هذه المساواة. إنها حق وخير في ذاتها. أما موضوع التسامح فهو في وعي المهيمن شرٌّ لا يمكنه، باعتباره كذلك، أن يطالب بأي حق في الوجود. ومكمن الصعوبة في التسامح هو تحديدا في قبول ما يُدرك باعتباره شرًا.

(13) Cité dans le dossier de J.-M. Gros, in P. Bayle, De la tolérance. Commentaire philosophique, Presses Pocket, 1992, p. 412.
انظر كذلك ميرابو: «لست هنا للدعوة إلى التسامح: فالحرية اللامحدودة للمعتقَد هي في نظري حق له من القداسة ما يجعلني أرى في لفظ التسامح، الذي يريد أن يلغيه، ضربًا من الاستبداد؛ لأن السلطة التي تسامح يمكنها ألا تسامح».
ورد ضمن:
Pena Ruiz, Dieu et Marianne, Paris, PUF, 1999, p. 116.

(14) ولكن إذا لم يكن ثمة أشياء نرفضها، فإنه لا داعي لتقديم مفهوم التسامح على الإطلاق، ويكفينا الحديث عن الحرية أو الاستقلال.
M. Crabston, "John Lock and the Case for Toleration", in focus, London and New York, 1991, p. 78.

(15) يستهل مايكل والزر كتابه عن التسامح بما يلي: «باعتباري يهوديًا أمريكيًا، نشأت في البداية وأنا أعتبر نفسي موضوعًا للتسامح». (Paris, Gallimard, 1998, p. 9)

وهذا ما نعاينه في رسالة في التسامح لجون لوك، حيث لفْظ «تسامح» يستمد مبرره من افتراض وجود ديانة وطنية تمتلك سلطة اضطهاد الديانات الأخرى [16]. فالدولة مطالبة بأن تنأى بنفسها عن ذلك، لأن غايتها محصورة فيما هو مدني (المحافظة على الممتلكات في معناها العام) دون أن تمتد إلى الاهتمام بمصير النفوس في العالم الآخر، أما الكنيسة فرسالتها روحية محضة تستبعد أي استعمال للإكراه؛ لأن القوة لا يمكنها أن تخلق الإخلاص الجواني الذي يمثل جوهر العقيدة. ولذلك تظل المظاهر الخارجية للإخلاص بلا أهمية كبيرة في تحصيل الخلاص. هذه الحجة الداعمة للتسامح تبدو متناقضة؛ فالدولة ليس لديها ما تتسامح بخصوصه طالما أن التعددية الدينية لا تقع ضمن مجال اختصاصها، ثم لأن هذه التعددية، من وجهة نظر مدنية، لا هي شر ولا هي خير. ولا يبدو لنا وجه التسامح لدى لوك في عرضه لهذه الحجة مادام يفترض أن تصوره للديانة «الحقة» ولماهية الدولة قد تغلَّب فيه على منافسيه. في المقابل، تقتضي هذه الحجة أن تكون الكنائس متسامحة. ولكي تكون كذلك عليها أن تتبنى مسبقًا، وإن بشكل غير تام، نظرية لوك. أما أتباع الكنيسة فيعتقدون بصفتهم الشخصية، خلافًا لما ذهب إليه لوك، أن بعض العبادات ضرورية لتحصيل الخلاص في حين أن بعض العبادات الأخرى لا تخدم هذا المسعى، بيد أنه يلزمهم أن يكونوا لوكيين (نسبة إلى لوك) بما يكفي كي يقبلوا تعامل الدولة مع الاختلافات الثقافية بلا أدنى تمايز، وكي يعاملوا بعضهم البعض كما لو كانوا فعلًا كذلك. أما لوك فيبدو، من جهته، متسامحًا حين يرفض اضطهاد الكفار رغم أنهم يتنكرون للديانة «الحقة»[17]. غير أنه لا يبدو كذلك عندما يكون في مواجهة أعدائه الحقيقيين، الكاثوليك والملحدين، الذين يمكنهم أن يكونوا، في هذا الصدد، موضوعًا مثاليًا للتسامح. إن «رسالة في التسامح» لا يعتبر عملًا رائدًا حول التسامح فقط لأنه يدعو إلى التسامح؛ بل لأنه يكشف أيضًا صعوبة أن تكون متسامحًا. إن لدينا بالفعل نزوعًا لاعتبار أنفسنا متسامحين عندما لا يكون ثمة ما نتسامح بشأنه، ويغيب هذا النزوع عندما نواجه بالفعل ما يمكن أن يكون موضوعًا للتسامح.

نحن نفهم الآن لماذا كراهية الكاثوليك للكفر ليست نفيًا قبليًا (a priori) للتسامح وإنما هي إحدى شروط إمكانه. المشكلة إذن تكمن في تفسير لماذا هذه الكراهية أو تلك تُوَلِّد أو لا تُوَلِّد اضطهادًا. بعض السلوكات المرفوضة لا يمكن التسامح معها إطلاقًا، بينما يكون ذلك ممكنا بالنسبة لأخرى غيرها، إما

(16) إن المترجم الإنجليزي لرسالة في التسامح، ويليام بوبل، هو من دعا في تصديره للكتاب إلى الحرية المطلقة في مجال التدين. (M. Cranston, op. cit., p. 85).

(17) Lettre sur la tolérance, Paris, GF, 1992, p. 194-195.

بصورة دائمة أو فقط في بعض الظروف الخاصة. لدى لاس كاساس مثلًا، التسامح ليس عامًا. وكونه يوظف في حالة الاختلاف الأقصى، لكن الخارجي، عن المشركين، لا يستلزم أن نمدده ليخدم الاختلاف الأدنى، لكن الداخلي، عن الكفار الموحدين المتمثلين في المهرطقين واليهود والمسلمين. وقد دأب لاس كاساس على تسمية خصومه بالمهرطقين، بل لقد طالب هو نفسه بإدخال محاكم التفتيش إلى أمريكا منذ عام 1546. وبذلك يصبح من السهل علينا أن نفهم سبب التباين بين معاملة الهنود [ومعاملة غيرهم]؛ فالمهرطقون والمسلمون واليهود هم أعداء الكنيسة الحقيقيون، لأنهم يرفضون تعاليمها ولا يخضعون لقوانين أمرائها المسيحيين أو يعمدون إلى محاربتها. أما الهنود فهم وثنيون غرباء تمامًا عن المسيحية؛ لم يُلحقوا بها أي ضرر، وليس لديهم أدنى معرفة عنها تحملهم على معارضتها عن عمد، ولذلك فالحجج التي عادة ما تبرر الإكراه الممارس على الكفار لا يمكنها أن تسري على وضعهم. فالتسامح الخاص الذي يتمتع به الهنود يجد تفسيره في تلك البرانية التاريخية والجغرافية عن المسيحية التي هي كبيرة بما يكفي بحيث لا يكون للشر في ذاته، الذي تجسده وثنيتهم، تأثير على المسيحيين يبرر استخدام الإكراه ضدهم وحرمانهم من حقوقهم الطبيعية.

إن الصعوبة في موقف لاس كاساس إنما تنبع من كون البرانية ربما ليست بالاتساع الذي يكفي للتسامح مع الشر. وقد استند سيبولفيدا في تبرير غزوه لأمريكا إلى ضرورة إخضاع الهنود لشرائع الكنيسة وبالتالي إدخالهم في الإنسانية. فمن جهة، تمثل الوثنية ضررًا يلحق بالرب ينبغي على المسيحيين معاقبة مقترفيه تبعًا للأمثلة الإلهية الواردة في الأسفار القديمة، ومن جهة ثانية بما أن البابا عهد لقشتالة مهمة إدخال الهنود إلى الكاثوليكية، فإنه يجوز لها اللجوء إلى الوسائل الدنيوية الضرورية، بما في ذلك الحرب، لأجل بلوغ هذه الغاية الروحية. أخيرًا، لَمَّا كان الناس يمثلون، نوعًا ما، مجتمعًا خاضعًا للقانون الطبيعي، فإن الوثنية تمثل انتهاكا لهذا القانون الطبيعي، من حيث أنها تجلب ضررا بالغا للإنسانية لما يتمخض عن التشبث بها من تضحيات بشرية جسيمة. الأتقياء والعقلاء لا يمكن أن يتسامحوا مع تضحية الوثنيين بالأبرياء؛ فهم إذن يملكون الحق، بل من واجبهم أن يهبُّوا لنجدتهم، بما في ذلك خوضهم للحرب ضد الدول التي تشرعن ارتكاب هذه الجرائم في حقهم. باختصار، هؤلاء الوثنيون هم متوحشون ينبغي، حرصًا على مصلحتهم، إخضاعهم بالقوة لشعب متحضر يعاقب على هذه الجريمة، وينقذ الأبرياء ويسهل عملية الاهتداء (إلى المسيحية).

إن اللامساواة السجالية بين المسيحيين والكفار منعت لاس كاساس من التخلي مسبقًا عن الحجة القائمة على إدماج الهنود ضمن الإنسانية وعلى إدماجهم الأدنى ضمن الكنيسة التي تسمح باستخدام الوسائل الدنيوية من أجل تحقيق غاية روحية:

«لكن من ذا الذي يمكنه أن ينفي أو يشكك، إلا إذا كان وثنيًا، في أن إبادة الوثنية ستكون غاية عادلة إذا أمكن فعل ذلك بلا ضجة، وبلا مخاطر، وبلا خسائر وبلا انعكاسات سلبية على الرعايا وغيرهم ؟»[18].

من المستحيل إنكار مشروعية الوسائل الدنيوية القادرة على تقويض الوثنية من دون أضرار بالغة. هذا النزوع الثيوقراطي متضمَّن في المقتضيات الكاثوليكية. ولذلك لا يمكن إلغاؤه ولكن فقط مقاومته. ولتطوير هذا النزوع المضاد لعب لاس كاساس على المستويين الذين يميزهما مذهب توما الأكويني، الإيمان والرحمة من جهة، والعقل والطبيعة من جهة أخرى. صحيح أن الوثنية هي شر من وجهة نظر الوحي، لكنها الشكل الطبيعي التي يمتلكه الناس لمحبة الإله حين لا تكتمل عقولهم بالإيمان. من وجهة نظر العقيدة، هي ضلال؛ لكن عليها أن تعترف بأن هذا الضلال يبدو لامحالة صوابا وخيرا للعقل المحدود بالنقص الذي يعتري الطبيعة البشرية. والحال أن الوعي المزيف (الضال) يُلزم تماما كما يُلزم الوعي الحقيقي؛ فعقل الوثني يأمره بتمجيد الإله، أو ما يبدو له أنه الإله الحق، بأفضل صورة ممكنة؛ ولذلك يهبه أغلى ما يملكه، وهو الحياة البشرية (التضحية بالنفس). ومنه يتبين حجم الأهمية المادية والرمزية للتضحية بما هي تعبير عن شدة محبة الإله. ولو كان في مُكنة الوثني أن يضحي بالملائكة من أجل الإله، لألزم نفسه بفعل ذلك. وتبعا لذلك، فإن الهنود ليسوا همجيين ينتهكون القانون الطبيعي، وبالتالي يتوجب على الشعوب العاقلة تطويعهم وترويضهم عبر حرمانهم من حقوقهم. وإذا أمكن للإسبان أن يتذرعوا بالحق الإلهي لإجبارهم على ترك الوثنية، فإن الهنود يمتلكون كل المشروعية في التصدي لهذا الادعاء عبر بوابة الحق الطبيعي. أكثر من ذلك، يوضح لاس كاساس بأن من واجبهم أن

(18) B. De Las Casas, op. cit., p. 257.

هذه النقلة من الإقناع إلى الإكراه المحسوب بدقة يجليه النص التالي: «لهذا السبب، وحيثما مارسوا التبشير على الكفار من أي طائفة كانوا، على المبشرين المسيحيين أن يسلحوا أنفسهم خاصة ضد الكهنة ويبذلوا الجهد لتحرير ضمائرهم، وإقناعهم، واستمالتهم بالخير قدر ما يستطيعون أو يعمدوا إلى اضطهادهم إذا امتلكوا القوة لفعل ذلك. وينبغي أن يعملوا على هذا كثيرا أمام الشعب لتجريدهم من كامل سلطتهم ومصداقيتهم أمام أتباعهم، لأنه إذا تحقق هذا، أمست هداية الشعب بأكمله مسألة سهلة بمباركة الرب».

(Cité par N. Capdevila, Las Casas : une politique de l'humanité, Paris, Ed. Du Cerf, 1998, p. 190).

يدافعوا عن عقيدتهم، مثلما يفعل المسيحيون، لأنها شُيدت على مدى تاريخ طويل وباركها أسيادهم[19].

من الطبيعي ألا نعثر على التسامح ضمن الفضائل المتضمنة في كتاب الخلاصة اللاهوتية (لتوما الأكويني)؛ لأنه تعبير عن عجز، في حين أن الفضائل تمنح كمالا معينا. لكن موقف لاس كاساس، والذي يمكننا أن نستشفه بصورة استرجاعية، ينظر إلى مفردة التسامح بوصفها فضيلة. والمفارقة أن التثمين الأخلاقي لهذا الموقف يتجسد في رمي من يعارضون موقفه هذا بالهرطقة. فهو، ضدا على خصومه، يرى أن الاعتراف بالوثنية في حدود الطبيعة دفاعا عن حقوق الهنود، هو الموقف الوحيد المسيحي «حقا». وهذا الموقف يمثل بكل تأكيد قمة الفضيلة باعتباره أحد صور الإحسان.

إن سياق اللاتسامح الذي عرفته إسبانيا القرن السادس عشر يُبرز الصعوبة المهدِّدة والضرورية في آن لمفهوم التسامح، من حيث أنه ينشأ عن مواجهة سلوكات نرفضها بينما نتمتع بما يكفي من التفوق الذي يتيح لنا التفكير في إلغائها بالإكراه. وقد أبان لاس كاساس من خلال تصريحه بأن العنف لا يجدي نفعا، عن كونه ليس غريبًا تمامًا عن التصور غير الليبرالي للتسامح. لكنه يتجاوز هذا التصور عندما يعترف بحقٍّ ما لمختلِفٍ مهدِّد. يريد لاس كاساس أن يقنع المسيحي بالتغلب على نفوره العفوي من الوثنية المصحوبة بالتضحية البشرية. فهو وإن كان مطالبًا بإدانتها ومحاربتها، إلا أن عليه أن يدرك بأنها بدورها تمثل معتقدا وممارسة لها منطقها الذي وحدَه مَن يقضي فيما إذا كانت محرومة من الأنوار الإلهية للإيمان أم لا. إن التسامح هنا ليس مجرد قبول للاختلاف بالنظر إلى أن موضوع هذا الاختلاف شر. وهو - أي التسامح - يعبر دائما عن كراهية هذا الشر، بل ويعجز عن إلغائه بالقوة. لكنه ليس فقط إثباتًا لضعف القوي أو قوة الضعيف؛ لأنه ينصبُّ على سلوك أصبح عقلُ القوي يعترف به ويتبناه في نطاق ما يسمح به نقص الطبيعة البشرية. إنه «التناقض» الذي يتيح للعقل المكتمل بالإيمان أن يدافع إلى حدود معينة عما يحاربه. صحيح أن المسيحيَّ ملزمٌ بمواصلة صراعِهِ ضد الوثنية، لكن بالطريقة التي يتطلبها سلوكه العقلاني الراشد، أي بالعمل على جعل هداية الهنود وإخضاعهم قائمة على موافقتهم الحرة تمامًا. وقد أصبح هذا الوضع ممكنا، دون أن يتورط في اللعب على حبلي اللاهوت التوماوي (نسبة لتوما الأكويني). إن عقل المسيحي ينشطر نصفين؛ لأنه يمارس التفكير في نفس الوقت وفقًا لنظامي

(19) Ibid., p. 270.

لا بُدَّ من الإشارة إلى أن هذه الحجة تستبعد كون الهنود يتمتعون في دولتهم بحرية دينية. والاستدلال المذكور يهم الشعوب وليس الأفراد.

الوحي والطبيعة معًا، وهما نظامان يخضعان لتراتبية، لكن الثاني يمتلك مشروعية متأصلة وإن ناقضت نتائجُه أحيانًا نتائجَ النظام الأول، كما يتبين ذلك من خلال حالتي الوثنية والتضحية البشرية. ولعل هذه التجربة التي تكشف عن نسبية نتائج العقل المسيحي هي ما يسمح لنا بأن نستعمل، بكيفية استرجاعية معاكسة للتسلسل الزمني، مصطلح تسامح بالنسبة للاس كاساس وفق معنى ليس بتاتًا غير ليبرالي